حكمة الأجداد

(من تراث منطقة القبائل)

تعريب: أ د صالح بلعيد

استمعتُ هذه المرّة إلى مجموعة من المستجوبين حول موضوع الأصالة وما ينجرّ عنها من متعلّقات قديمة وحديثة، فدوّنتُ الكثير من الروايات والحكايات ومن مسموع الجدّ والجدات. لقد جلست مراراً إلى راويَيْن، ولازمتُهما تكراراً، واستمعت إلى حديثهما الطويل والعرض إمعاناً، وعن فعل الأجداد العتيد انبهاراً، وجاريتُهما لاستخلاص المبتغى، واستجلاء الذكرى، من فعل الأجداد الأولى وكانت جلساتي معهم جلسات الأُلْف في فعل السلف، ورُمْتُ بها نفعَ الخَلَف، بما يرفع عنّا الكَلف. والأهمّ فيها أنّني عقدتُ جلساتٍ لم تكن عَدَماً وبَيَاراً، بل كانت تصديقاً وتوثيقاً، ممّا جمعته من أهل التسبيق، بعد أن أخبرتُهما بأنّي أستهدف الكتابةَ في موضوع **الأصالة**، وألححتُ أطرحُ أسئلتي لحصر الحديث، وتوجيههما إلى الموضوع، فكتبتُ المفيد في ما رمتُ أن يكون سديداً، ويستفيد منه الطالب والمطلوب، فما ضاعَ علم وراءه باحثٌ مِعْناد، وما فسدت بضاعةٌ في سوق المزاد، ولا خاب من استزاد، وكذلك يحصل المُراد، في كلّ مطلوب غير مُعاد.

لقد وقع إصراري على أن يحدّثاني عن الأصالة **(ثَاچَادِيثْ)** ووجهتُ أسئلتي حول دلالاتها، وعن متعلّقاتها، وما ينجرّ عنها من قوانين وسنن، والتي وضعها أجدادنا في القديم، وساروا عليها محافظين وبقَوا يرسّخونها دائمين، وكانوا يوصون أخلافَهم مصرّين، وبضرورة اقتداء الأحفاد خُطى الأجداد وفي نيّتهم كذلك تكون النّجاة من الأحقاد، وكي يعتبر الداني من القاصي، والحاضر من الماضي، ولكن يا للعجب كيف تغيّرت الأحوال والمَحال، وجاء الرجال تلو الرجال، فما بقيَ أثر لما تركه الأجداد وأصبحنا لا نعتبر بما قنّنوه من أفكار، وما صاغوه من أعمال، ولم نعد نهتمّ بما تركوه من إدبار وأنوار، رغم أنّ زمانهم ولّى، وليتَ زمانَنا ما تولّى، لكنّه أدبرَ واستدبرَ وولّى دون عبرة، وما أخذ الأمرَ على الميثاق، ولا أعمل الفكر في الآفاق، وبذلك أضاع كلّ الوفاق.

وانفلَتَ أحدُ الراويين واقفاً، وقال: قبل الدخول في الموضوع أقول: إنّ الحديث عن **(ثاچديث)** هو حديث عن الكلمة، فالرجل ثلاثة أنواع: رجل بنفسه، ورجل بلسانه، ورجل بماله، فالرجل بنفسه هو الرجل القوي الصحيح الذي يهابه الناس لأنّه لا يريد أن يردّ كلامه، والرجل بلسانه وهو الرجل السحّار الذي يأخذ بالألباب، والرجل بماله هو الكريم الجوّاد. ومن هو في مقام أحد الثلاثة هو ما يطلق عليه عندنا **(أرگاز نلهدرا)**. وبخاصة ذلك الذي يتوفّر على اللسان الذلق،

ونسميه كذلك **(أحدّاذ أَيَاوال)** والأصالة هو الرجل الذي يجسّد أفعاله من لسانه، فالرجل يُقبض من لسانه، وليس مثل الحمار الذي يُقاد من أذنه. الأصالة ماضٍ رَحَلَ مع الأجداد بحلاوته، ولكنّه حاضر مع الأبناء بقساوته، فأبناؤنا اليوم يُخدعون مراراً ولا يرتدعون فالمثل يقول: إنْ خَدَعَك أحدُهم مرة فأنتَ طيّب، وإذا كرّر خداعَه فأنت أحمقُ، ومن هنا نرى أولادنا سُذّجاً فليسوا في مستوى أجدادهم، فأنّى لهم أن ينتبهوا إلى حماقاتهم، فلقد أضاعوا كلّ شيء، فهل ينفع الآن ما يُكتب لهذا الجيل الذي يَنْظُر إلى الماضي على أنّه من سقط المتاع، وهل يقرؤون عنكم ما تكتبون، وعيونهم ملتصقة في الحيطان، على التلفاز الرنّان، وليس للأصالة عندهم مكان. إنّ أولادَنا ينظرون إلينا على أنّنا مُتحفيون، ولا يجب أن نُشاور، فنحن منقرضون؛ حيث نعيش الحاضر بأفكار ماضي قارون، فماذا تنفع هذه الوريقات إذا لم تتغيّر العقليات وتسود النيّات. ومع إصراري امتثلَ هذا الراوي الواقف للموضوع بمشاركة صاحبه فقالا:

إنّ **الأصالة** لها معانٍ عدّة، والسياق هو الذي يحدّد المعنى بدقّة، ومع ذلك فالأصالة هي **(ثاقيليث)** الجدّ والجدّة، بمعنى أنّ الأصيل هو من يكون في خدمة غيره في همّة، ويكون حاضراً في الشأن العام بفكره وماله وفي يده النّعمة، فلا يتأخّر عن الوفاق ولا عن مجموعة الرفاق، ولا يكون من الهاربين عن الناس زراية ودراية أو على خناق، حيث لا يعرف إلاّ نفسه ولو كان في السباق، وهذا النوع يطلق عليه **(ثيرذليث)** بمعنى المتأخّر المتخلّف البخيل الشحيح الذي لا يظهر أمام الناس إلاّ في هيئة النفاق. فالأصالة أن تكون **(أرگاز)** وأن تقف على نيفك وحرمة دارك، وتبدأ تصلح أهلك وأولادك وتعمل للمصلحة العامة بجسدك وفكرك ومالك، فقليل من مالك يزيّن حالك، والرجل هو من يكون حيث يكون الناس، دون أن يملك الأموال والأحلاس، ولهذا يقال: ليس كلّ من لبس السروالَ رجلاً، وليس الثورُ الأبيض كلّه شحماً، فالرجل يعني **(ثيرُوگْزَا)** مثله مثل الحديد ينقرم ولا يلين، وكذلك الرجل الأصيل يَنكسر ولا يَنحني.

الأصالة هي الصدق والأخلاق والفحولة وكلّها تعكس اللغة، وبذا فالأصالة تعني حفظ اللغة من الاندثار باعتبارها **(ذاوال)** الذي يحفظ للأجيال المازيغيين ما يملكونه من حكمة وتجربة ومعرفة وأدب وتقاليد وأعراف، مكتوبه في الكرّاس، ومحفوظه في الرّاس. والأصالة تاريخ الأجداد الحافل بعظائم الأعمال وجليل التراث المنهال. الأصالة تاريخ تَمَيَّز بالعمق والقوّة مهما اختلفت مشاربه. قال أحدهما لقد سمعت أسليمان أوگعلي يقول: إنّ الأصالة أن تتكلّم قليلاً وتسمع كثيراً، فمن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول، فالله أعطى لنا فماً واحداً، وأعطى لنا أذنين اثنين، فلنسمع أكثر ممّا نقول، وتِلْكُم هي **(ثاقيايليث)** وأما **(ثامازيغيث)** أن تسكتَ حيث يجب أن تسكتَ، وتتكلّمَ

حيث يجب أن تتكلّمَ، وقديماً كانوا يقولون: هناك رجل يُغرم إذا تكلّمَ، وهناك رجل يُغرم إذا سكتَ، فالحكمة هنا أنّ من له الدِراية كان عليه أن يتكلّمَ، فإذا سكتَ حيث يجب أن يتكلّمَ ليستفيدَ منه الناس فهنا يُغرم، وهناك من يتكلّم ولكنّه يُغرم، فهو الرجل الذي لا يعرف ماذا يتكلّم، فإذا تكلّم يخطئ ويتلعثم، فهذا يُغرم عندما يتكلّم، ومن هنا قالوا: تكلّمْ حيث يجب أن تتكلّم، واسكتْ حيث يجب أن تسكتْ، وهذه هي الرجولة والفحولة والأصالة. وهكذا نجد كلام الأجداد كنزاً لا ينفذ ولا يُقدّر بثمن، ولكن من يحفظه في القلب، ويصونه من الضياع وينقله إلى كلّ الرباع، ليكون في فكر كلّ السباع، وكان يجب أنّه حين يحكي الأجداد يصمت كلّ شيء إلاّ الذكرى. وقال الآخر: الأصالة أن تبقى وفياً، ولا تكون صورة لغيرك، فأنتَ لستَ الآخر، ولا يجب أن تذوب فيه، والشخص عليه أن يتميّز بما أُعطيَ من خصائص عقلية، فليس مصنّفاً في مملكة الحيوان، تلك هي الأصالة بما يملك الإنسان من انفراد.

وقلتُ: أرى أنّنا استوفينا الآن موضوع الأصالة تفسيراً، وندعِ الأمرَ تيسيراً، ونمرّ إلى الحديث عن أخلاق القرية في باب الأصالة تصويراً، فقالاً: اكتبْ عنّا واستوعبْ، وما نقوله لك حديث عن أخلاق القرية، أو ما يسمّى عند أجدادك المازيغيين بـ (ثَلاستْ ج ثيليسَا) الحدّ ج الحدود، وكيف خطّطوا لأنفسهم سلوكاً عاماً، والذي تجسّد في شكل آداب القرية وهي من آداب المجتمع، بوضعهم للسلوك الاجتماعي الذي يقتدي به أفرادُ القرية ليعيشوا في سلام؛ حيث لا يعتدي أحد على الآخر، ولا يَظْلِم الأخُ أخاه، ولا يَسْفِك الجارُ دمَ جاره.

اكتبْ عنّا يا شيخ: إنّ أجدادنا حدّدوا حدوداً مَدَنِية قبل أن يعرفوا أخلاق الديانات، ووضعوا المحاسبين على تطبيقها؛ بإقامة هيكل مدني سمّوه (ثاڤْماعيثْ ج ثيچمُوعَا) وسنّوا غرامات ردعية لكلّ من يُخلّ بأخلاق القرية، وباتَ مكانُ تَجَمُّعِهم مَهاباً مَرهوباً خوف المحاسبة والعقاب، بل إنّ تلك الجماعات أضحت مدرسة أخلاقية تدرّس الأخلاق والحقوق والواجبات وتردّ المظالم، وما كانوا يعرفون للمحاكم باباً، فكلّما نُصّبت جماعة كان يعني فتْح مدرسة، أو غَلْق سجن. ولقد كان ذلك زمن الجهل العلمي، ولكنّه كان زمن الأخلاق العالية والآداب والمعاني الرفيعة، ونرى اليوم تلك السنن التي ثبَّتَها أجدادنا تجسّدت في أخلاق الإسلام الذي هو ديننا الحنيف.

لقد سنّ أجدادنا قوانين صارمة سمّوها (ثيليسَا) تُحترم من أفراد القبيلة/ العرش/ البطون؛ لأنّ أفراد القبائل والبطون والعروش تجمع بينها روابط قبلية، وبينها روابط شعبية وقومية أو دينية، وكان لا بدّ من احترام هذه القوانين/ الحدود وإلاّ سوف يَضيع عرشُهم، وتحصل عليهم الغارات، ويبقون في أفواه العروش لباناً تتكلّم عليهم بالسوء.

ولنبدأ على بركة الله، وسوف نقدّم لك المعالم التي كانت سائدة في المجتمع المازيغي، وما تزال تحافظ عليها بعض القبائل إلى الآن أو على بعض قَسَماتها، وإن كان زمان الأجداد غير زماننا، ولكن الأخلاق يجب أن تتطوّر ولا تهدّم، أن تتكيّف ولا تُمحى، وتلك سمّة الأصالة (ثاچاديثْ) التي نعتزّ بها.

1. ثاڤْمَاعيثْ: مفرد ثيڤَمُوعَا: وهي سلطة تشريعية ضبطية تنفيذية رقابية ردعية، وقد وضع هذا الجهاز من أجل:

. تأطير المجتمع وتطويره أدباً وتكتلاً؛

. سنّ القوانين والتشريعات؛

. محاربة التعدّي وردّ المظالم؛

. التآزر والتآلف والتعاون؛

. التكتّل وراء قوانين تحمي الجميع.

إنّ القبائل كانوا أقليّة، ولهذا وضعوا هذه الجمعيات التي تسنّ القوانين، وتحافظ على وَحْدَتهم خوف الذوبان، وخوف دخول الأجنبي في مجتمعهم البسيط، وهذه البساطة هي التي جعلتهم يتكتّلون ويتوحّدون. **والأجنبي:** عندما يدخل القرية أول مرّة، فإنّه يسند إلى بطن من البطون (أَذْرُومْ) وإلاّ لا يُقبل مُقامه في القرية، فيبقى دون حماية، ومع ذلك فإذا احتمى سيكون بعد سنة مثله مثل الساكنة الأخرى، له ما له من حقوق، وعليه واجبات، والأهمّ أن ينتمي للبطن الذي احتمى به إثر دخوله أول مرّة، أو يحتمي لبطن الشخص الذي استقدمه، وتسري عليه القوانين التي تسري على الآخرين بعد أن يخيّر بين البقاء ضمن عادات قريته القديمة، أو ينتمي إلى عادات وأعراف المجتمع الجديد، فكان عليه الخيار. كما نشير بأنّ القوانين والأحكام لا تسري على الأجنبي إلاّ إذا تخلّى عن عادات قريته، وعند ذلك يُدمج في قوانين القرية ويصبح فرداً منها. ولا تطلق كلمة (الأجنبي) إلاّ من له إقامة تقلّ عن سنة فهذا لا يحسب له من الصدقة التي يقيمها العرش، ولكن لا يُمْنَع اللحمَ بتاتاً؛ حيث يُعطى من اللحم الإضافي. وإنّ الجماعة سمّة امتيازية عن الأغيار، فهي عند المازيغيين تحافظ على المكتسبات الخيرية وتعمل على تنميتها. وللجماعة أعضاء، ويشترط في عضو الجماعة ما يلي:

1. **كِبَر السنّ:** أهمّ شرط في الانتماء لهذه الجماعة، لأنّ العمر يعمل دائماً على كبح النزوات والأهواء، وعدم الخروج على رأي الجماعة، أو إثارة الفتن؛
2. **التعقّل:** من عوامل الاحترام والرجحان؛

3. **الغِنى:** لأنّ الغني يعمل دائماً على العطاء لا على الأخذ؛
4. **الكفاف:** أي أنّ لا يمدّ يده لغير حقه، ومن مشهود له بالخير؛
5. **العِفَّة:** يتدخل جانب الأخلاق الكريمة التي كان يتحلّى بها سابقاً؛
6. **النباهة:** وهي سمة تظهر في الراشد أثناء مناقشة المسائل؛
7. **التضحية:** ويعني التخلّي عن الذاتية وعن قضاء المصالح الخاصة من أجل مصلحة الجماعة التي يمثّلها العضو، ويؤدّي به أحياناً إلى ترك أعماله الخاصة من أجل المشاركة في عمل خيري باعتباره يمثّل بطن قبيلة فلان، ولا يمكن أن يغيب. وتعزل الجماعة ذلك العضو الذي تكثر غياباته. ومن شروط العضوية ما يلي:

1. أن يكون العضو ممثّلاً لبطن من البطون (أذروم)؛
2. أن يكون ممثّل البطن ذا أخلاق عالية؛
3. أن يكون مشهوداً له بالصدق؛
4. أن يكون ذا جاه أو مال؛
5. أن يكون ذا فصاحة؛
6. أن يكون صاحبَ رأي صائب؛
7. أن يكون كبيرَ السنّ.

تعمل الجماعة على تقنين القوانين، وسنّ التشريعات، وجمع الأموال من البطون والعروش. فقلتُ لهما: وماذا تفعل الجماعة بهذه الأموال؟ قالا: في العادة تبقى الأموال في رصيد الجماعة نقداً عند الغني/ صاحب جاه ومال، بوضع ضبط كتابي لكلّ (دُورُو) تدخل الرصيد، وتتصرّف الجماعة في هذه الأموال عند: الصدقات العامة/ شقّ الطريق/ شقّ الترعة/ حفر الآبار/ سدّ غرامات العرش/ استرداد أراضي مغتصبة/ تخليص مساجين من عرش يَطْلُب الفدية/ دفع الديّة عن أفراد ضعاف مادياً.

وفي تأكيد صارم لمقام المكان بهيبة الجماعة، قال أحد الراويين: أصدقكم القول بأنّ الجماعة لها هيبة كبيرة، وهيبتها تبدأ من مكان تجمعها الذي يحمل الاحترام والمهابة، فمكان تجمّع الجماعة كان محترماً مُهاباً؛ بحيث ما يمرّ به أحد إلاّ ويتجنّب المكان احتراماً وخوفاً من التعزيز الذي تستعمله الجماعة، فمن يُستدعى لذلك المكان يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، فما إن يصل المكان إلاّ ويقول: الرأي ما تراه الجماعة، وأنا فرد من أفراد القرية، فلا أخالف الجماعة، وأنا مُسَلّم مكتّف للجماعة. وقال أحدهما: إنّ بعض العامة من الناس لا يأتون المكان نهاراً خوف الوصول إليه ذات يوم، بَلْهَ الحديث عن المرور بقربه ليلاً فهو من باب المحال؛ حيث تخرج منه الأغوال.

إنّ روح الجماعة في تراثنا من المسائل المؤكّدة والمشجّع عليها، وتعني في ما تعني أنّ الفرد لا ينقطع عن الجماعة، ولا ينقطع عن تجسيد صوَر فِعْل الخير من مثل: الأمر بالمعروف/ فضّ النزاعات/ رفع الحيف والظلم/ مراقبة وحراسة الدُشُر... ولذا فالفرد عندما يكون منضوياً تحت رأي الجماعة يأخذ عنها هذه الأفكار، ويعمل على توريثها أولادَه، وبذلك يسعد الناس جميعاً، ويعيشون في سلام وأمن، وعلى رأي واحد مطمئنين.

وعوداً على مسألة **ثاچمعيث** أو **ثاجماعث** أو **تاجماعت** فهي أداءات مختلفة لمصطلح واحد يعنى به: مجموعة من الناس العقلاء وكبار السنّ الذين يقومون على فعل الخير في قرية أو في ضاحية أو دوّار أو عرش. وتعني الكلمة في معناها العام: الجماعة والجمع هو الضمّ على طريقة مخصوصة. ومنها في اللغة مصطلح الجمع الذي يتجاوز العدد فيه ثلاثة فما فوق. ولهذا يُقال عند القبائل أچماع ليمان. وهو قسم عظيم لو تعلمونه، وكل من يتقدّم أمام الجماعة لا يمكنه إلا أن يقول الحقّ صاغراً ودون شعور، وهذا أمام الملأ.

كما تعزل الجماعة كلّ من لا يحترم آراءها، أو لا يطبق تعليماتها، ونجد المعزول مثل الحمار الأجرب، فلا يكلّمه أحد، وبهذا الردع الأخلاقي يمتثل لرأي الجماعة، ويخضع صاغراً، وقد يغرم بغرامة مالية إذا تاب عن غيّه.

ظهرت **(ثاجماعيث)** في الوقت الذي كانت المجتمعات البربرية لا تشكّل كثافة سكانية معتبرة وكانت وسيلة من وسائل التأسيس للقوانين الضابطة للمجتمع المازيغي، وقد زكّاها الإسلام باعتبارها تسلك مسلكاً أخلاقياً فيه الدفاع عن الحقّ وردّ المظالم ونصرة المظلوم، ولهذا لا تخلو ثاجمعيث من وجود فقيه (شيخ) ويكون من المرابطين، وقد يكون عضواً أو يُستشار في الأحكام، ويكون من الحافظين للقرآن الكريم.

أنكرتْ جبهة التحرير الوطني هذا النظام، واعتبرته من النظام البالي، لأن الجبهة تنظر إليها على أنّ من الجمعيات التي يقودها رجال الدين الذين لا يفعّلون في المحيط من أجل التغيير، حيث تسود النظرية الدينية المتسلّطة والتي ترفض الثورة، باعتبار أنّ الثورة عند بعض المشايخ هي تسليط وعذاب من الله، فعلينا التزام الصبر حيث الفرج، ولا يجب أن يُثار على الاستعمار، ولهذا عملت الثورة على تحديد صيت الجماعة، كما أنّ الحزب الحاكم بعد الاستقلال منع عقد جلسات ثاجماعيث.

وبالنسبة لبعض الخصوصيات ذات العلاقة بثاجماعيث فإنّه لا تحضّر صغار السنّ في اجتماعاتها ولا يقبلون للأعضاء استصحاب أولادهم، وكانت اجتماعاتهم أسبوعية وعلانية بعد

صلاة الجمعة في رواق المسجد أو تحت شجرة زيتون قريبة من المسجد، أو في سقيفة مشتركة هي مقرّ الجماعة. وتعمل الجماعة على مناقشة مختلف القضايا بصورة علنية، ولا تفصل في مسألة ما إلاّ بعد البرهان والحجّة والدليل، ويكون الفصل بصورة جماعية وبالتراضي مع جميع الأطراف.

اكتبْ عنّا ما نقول: لقد سنّ المجتمع المازيغي لقاءين سنويين هامين يلتقي فيه العرش للنظر في أحواله ومشاريعه، ويتّخذ من الصدقة (الوزيعة) سبباً للاجتماع، وهذان اللقاءان هما:

أ . لقاء الخريف: هو لقاء عام كبير تُذبَح فيه الثيرانُ تيمّناً بموسم تساقط المطر والثلوج، وفألاً بعام فلاحي مثمر. وهذا اللقاء يُعتبر فاتحةَ الدعوة للخير والتفاؤل، ويًدعى الناس إلى امتثال الأخلاق الكريمة، وبخاصة التسامح ونبذ العنف، والتآزر في الملمّات والأفراح. وفي هذا اللقاء تُعرض المشاريع المستقبلية ذات الشأن العام مثل: شقّ الطريق، حفر الآبار، حفر مجاري السواقي، ترميم المباني، بناء الأكواخ، تهيئة الأراضي الغابية لصالح الأراضي الفلاحية...

ب . لقاء الربيع: يكون هذا اللقاء أقلّ من لقاء الخريف في العدد والعدّة، وغالباً أنّه ليس في الرزنامة الدائمة التي لا بدّ أن يجري مثل لقاء الخريف الذي هو مقدّس إجراؤه. هذا اللقاء الربيعي يحصل عندما يطيب أَلْمَرْمَزْ وهي نذير بداية ظهور الثمار والخيرات، وبداية قطف الخيرات من خلال التّعب الذي أضنى الفلاحين في فصل الشتاء. في هذا اللقاء تُذبح الضأنُ فقط، ويتمّ توزيع اللحم على (ثيخامِينْ/ إزگارَنْ) وقبل الدعوات؛ تجلس الجماعة للتداول حول القضايا العالقة من مثل: علاج قضايا الوراثة/ أخذ القرار في النّساء المعلّقات/ معالجة الخصومات/ اقتراح المشاريع... ويتمّ البتّ في كثير من القضايا قبل توزيع اللحوم، ثمّ تتلو الدعوات، وسبق للحم أن توزّع فوق فروع شجيرات النبق في الأرض في شكل كُتَل حمراء، وتوزّع على البطون حسب عدد أفراد كلّ بطن. فكلّ ثلاثة (3) نفر يعدّون **أزگار**، وإذا وصل العدد إلى ستّة (6) يعدّون **ثونت**. وبعملية بسيطة يكون التوزيع العادل بحسب عدد أفراد كلّ بيت.

وما يخرج من هذين اللقاءين (الخريف والربيع) لا بدّ أن يكون موضع تقدير واحترام وتطبيق فقلتُ: فإذا خرج من لم يراعِ حرمةَ هذه السُّنة، ولم يحترمْ هذه القوانين فما عاقبته؟ قالا: اعلمْ بأنّها حدود وُضعت في مجتمع رعوي ضيّق، وقد تحصل فيه بعض الإكراهات والتجاوزات أحياناً، فتقوم الجماعة على إصلاحها قبل استفحالها، وذلك بسلسلة من القوانين التعزيرية، وعلى هذا التراتب:

1. التنبيه: ينبّه المعتدي لبعض الهَنَات التي أحدثها، على ألاّ يعود إلى فعلها مرة أخرى، من مثل الرعي في أرض غير أرضه، فيقرّ بعدم تكرار فعلته؛

2. التغريم: تقوم الجماعة بتغريم المعتدي بقيمة مالية رمزية، وهي تعبير عن التعزير كي لا يتكرّر الفعل، فيقوم (الطَّامَنْ) بدفع تلك القيمة عن ممثله، وبدوره يستخلصها من صاحبه؛

3. إعطاؤه مهلة مراجعة نفسه والامتثال لرأي الجماعة، ودعوته لإعادة النظر في ما ارتكبَ من خطأ ويطلب السماح؛

4. من حقّه الطعن في رأي الجماعة على أن يأتي إلى الجماعة للدفاع عن رأيه، ومن ثمّ يقع التداول مرّة أخرى، وما تخرج به الجماعة غير قابل للنقض بتاتاً، بل يخضع للتطبيق والامتثال؛

5. العَزْلُ: هو نوع من القوانين الردعية إذا تجاوز المعتدي حدوده، فتعزله الجماعة بعد تنبيهه وإشعار (الطَّامَن/ البطن) وعند تطبيق القانون/ ثيليسا يلتزم كلّ الناس بها. والعزل يكون بالعديد من الطرائق؛ حيث لا يردّ عليه الناس السلام/ لا يُجالس/ لا يُسلّم عليه/ لا يزوّج/ لا يُركب/ لا تُتَبادل معه المصالح المرسلة...

إنّ هذه العقوبات هي عقوبات نفسية أكثر منها مادية، وتجعل الشخص لا يخرج عن النظام الذي سنّته الجماعة، وهذا خوف الضياع؛ لأنّ المجتمعَ المازيغي في تلك العصور صغيرٌ وبسيطٌ، فإذا لم يضع تلك الحدود فسوف يذوب في جماعات أخرى، بل لا تبقى له خصوصياته.

2. الصَّدَقَة: وتسمى في الدارجة (لَوْزِيَعة) وهي نوع من التضامن البيني الذي تقيمه العروش من خلال اللقاءين المذكورين سلفاً، لقاء الخريف أو بداية الحرث؛ وهو الأول، ثمّ لقاء بداية الصيف وهو الثاني، وتقام لَوْزِيعة في اللقاءين، وهذا بغرض معالجة المصالح العامة واللحم وَسْمَة، ولا يقام اللقاءان بغرض أكل اللحم؛ لأنّ المجتمع في أصله رعوي، فهو مشبع من جانب أكل اللحم، ولكن القضية في استعجال الوزيعة واستلذاذ طعامها، وما تسفر عنها من قوانين ونتائج وتقديم حلول للمشاكل، وفضّ للنزاعات، ونشر الطمأنينة. ولهذا يتنادى لهذا المحفل مرتين في العام ليعالج قضايا شائكة لا يستطيع حلّها إلاّ العرش من مثل: الفصل في مسائل النّساء المعلّقات، النظر في التعدية على المصالح المشتركة/ ردّ المظالم/ مناقشة التعدّي على العادات القبلية/ النظر في الخصومات... يتنادى الناس للصَّدَقة، وهي غير محدودة، ويحصل فيها أن يتحمّل الغني الفقير، وكلّ الناس يأخذون من لحم الصدقة ممّا قلّ منه أو كَثُرَ. تضع الجماعة نصيباً إضافياً لسدّ النسيان أو تقديمها للغرباء، فإذا بقيَ اللحمُ الإضافي يُباع قليله بعد أن يوزّع أكثره على الغرباء والنُّفَسَاء والفقراء وعابري السبيل. كما تقسم الجماعة اللحم على فرعين: . أزگار: فيه ثلاثة (3) أفراد . ثُونْت: فيها ستّة (6) أفراد.

وهكذا نعلم أنّ الصّدقة لها وقتان: الوقت الأول أن تكون في نهاية الخريف ويسمّونه: (ثبورث أوسگاس) ويسمّون هذا اليوم (**أَوْجَبْ**) وهو أول يوم يكون فيه إخراج المحراث؛ حيث يعدّ الناس في ذلك اليوم أكلاً مميّزاً، وفيه يقدّم (أَعَبُّوزْ) والتين والرمان للأولاد احتفاءً ببداية موسم الحرث. والوقت الثاني أن تكون في أواخر الربيع، وفي شهر مايو وهو موسم قطف (أَرْكُول) وفيه البداية لجمع الأرزاق (أَلْمَرْمَز) أو ما تسميه العامة الآن (لَفْرِيك).

3. ثيمَشْرَطْ: وهي غير الصدقة، وتعدّ من الصَّدَقَة من وجه أنّه يتمّ فيها توزيع اللحم على المشتركين وبنفس الإجراء الذي تتّخذه الصَّدَقَة، ولكن بأقلّ عدد بشراً وعدّة واستنفاراً. وعلى العموم فثيمَشْرَط تعني شراء الذبيحة بقيمة معيّنة بسيطة تُوزّع على المشتركين فقط، حيث يتمّ ذبح الذبيحة للاستفادة من لحمها الرخيص لأنّه بيع بما يشبه بيع لجملة. وتكون ثيمشرط خاصة وضيّقة، ويمكن أن تكون في حيّ واحد أو بين قبيلة واحدة فقط، أو عائلة واحدة، هدفها أكل اللحم، فلا تطرح فيها قضايا العرش، وليس لها وقت معيّن. والفرق بينها وبين الصدقة أنّ ثيمشرط ليست صدقة، بل خيار واتّفاق بين مجموعة من الناس بمناسبة ما، حيث يشترون ما يذبحونه بسعر رخيص، ولما توّزع تحسب القيمة الإجمالية على عدد المشتركين، وكلّ يدفع حصّته بالتساوي. وأما الصَّدَقَة فإنّ الغني يتحمّل الفقير، وكلّ الساكنة يستفيدون من اللحم، إضافة إلى الأجانب والفقراء وعابري السبيل، والذين انقطعت به السبل.

4. الحُبُوس: الحبوس لغة يعني الوقف، وقف الرجل ماءً بمعنى حبسه وجعله موقوفاً في سُبُل الخير. وفي العموم ما أوقفه صاحبه من أرض أو زيتون أو كروم، فيحبس أصله، ويسبل غلّته على الجماعة وهي مخصّصات أو هبة أبدية لخدمة عامة، تخرج من ذمة صاحبها، وليس له أولوية الشَّفْعَة، بقدر ما له أولوية الشراء إذا أعملت الجماعة في الحُبوس البيعَ. والحُبوس بالمعنى العام أن شخصاً أو جماعة يحبسون أرضهم أو أشجارهم عن كلّ حقّ لغيرهم، وترصد منافعها لجهة أو جماعة. والحُبوس لا يحتاج إلى قبول الموقوف عليه، ولا سيّما أنّ الموقوف عليه قد يكون جهة برّ وإحسان.

اهتمّ المازيغيون بظاهرة الحُبوس (الوقف) باعتباره تضامناً وتعاوناً وتراحُماً، لأنّ الجماعة هي التي تقوم بعبء الأعمال الاجتماعية، وتنشئ المؤسّسات، كما كان الحُبوس المصدر الأساس لقوّة المجتمع وكان يمثّل الاستغلال المتجدّد اللامتناهي لمجمل الفعاليات النفعية اجتماعياً، وازدادت ظاهرة تقديم الحُبوس انتشاراً في العصر العثماني، واستحدثت فيه آليات جديدة، ولا تزال قائمة في بلاد القبائل إلى يومنا هذا، رُغم ما تشهده في الوقت المعاصر من انحصار بسبب نقص

العقار الذي يعرف انحصاراً حيث إنّ المجتمع المازيغي اتّخذ من الجبال بيوتاً وسكناً، فليس له ممّا يهبّ الآن من مزيد؛ لقلّة الأراضي.

نشأ الحُبوس في أصله لرفع الحرج عن عدم إنشاء المشاريع المشتركة، وكان يشمل بالخصوص: وقْف الأراضي، وقْف الأشجار، وإنشاء السقايات، وتسبيل الماء، وقف أماكن الأسواق، وقف أراضي للحمامات، وقف الحظائر، وقف المسالك... وعلى العموم كان كلّ ما يدخل في المصالح المرسلة يحتاج إلى وقف، حيث تعمل الجماعة على تخصيص قطعة له من الوقف الذي دخل في سجل الجماعة، وكان الخير كثيراً آنذاك.

ولقد اعتبر الحُبوس أملاكاً مقدّسة لا يجوز استعادتها، وأحياناً لا يجوز بيعها إلاّ لضرورة خاصة وجوّزوا تبديلها بما يلبّي الضرورات والمنافع المشتركة. لم تقبل الجماعة قديماً وضع شروط للواهب الواقف، وما دام الوقفُ تمّ على الخيار فبطل الشرط وصحّ الوقف، ولا تقبل الجماعة الحُبوس الإكراهي، كما لا تقبله عن شخص لا يملك الوَهْب، أو عمّن له زراية مع الجماعة، أو عن شخص له مشاكل مع الإخوة أو الجيران، أو عمّن يوصف بالمتردّد.

وإذا حدث أن تغيّرت وظيفة الأرض المحبوسة فتبقى في صالح الجماعة، تتصرّف فيها بحسب ما يقع الاتّفاق على تغيير خدماتها، وتبقى الحبوس دائماً في خدمة الشأن العام دائماً، مهما تغيّرت وظيفتها ومن هنا فإنّ المازيغيين سنّوا قوانين تحمي الحُبوس؛ حيث يجب تدبيرها تدبيراً جيّداً، واستغلالها للشأن العام، وهو واجب الجماعة وجوباً عينياً؛ حيث تسهر الساكنة على تنمية الحبوس، وعدم التسامح في التفريط فيها، وبخاصة إذا وقع الطلب على استرجاعها، فتردع الجماعة الواهب المسترجع بما لها من قوانين ردعية صارمة؛ حيث ينظر إلى الحُبوس على أنّها من الأشياء المقدّسة التي تعلو على كلّ الناس، ولا يحقّ للواهب استرجاعها أو التراجع عمّا أعطاه رضا لا إجباراً، وإذا حدث أنّ الواهب خرج عن طوع الجماعة حيث استردّ أرضه فرطاً وقوّة، تطبّق عليه قوانين العزل.

5. أَقَّانْدُوا[85]: اعلم يا أنّ شجرات الزيتون المسماة بـ (أقّاندوا) لها ما لها من حقوق وواجبات فَعَلَى من يوجد في أرضه (أقّاندوا) أن يتفهّم الطرف الثاني، ويكون التعامل بالحُسنى، بتبادل

1. **هي شجرة/ شجرات زيتون يملكها شخص في أرض ليست له.** وإنّ المازيغيين كانوا يقدّسون هذه الشجرة لأنّهم يتعالجون بمنتوجها (الزيت) وعند اقتسام الأخوة للأراضي المشتركة، كلّ يأخذ أشجار الزيتون في أرضه، وفي حالة أنّ أحد الإخوة كانت في أرضه (حصّته) عدد أشجار الزيتون أكثر من حصّة أخيه، هنا تضطرّ الجماعة إلى

المصالح تنازلاً أو بيعاً، وإذا استعصى طرفٌ على طرف آخر، فهاكِ هذه الحدود التي حدّدها أجدادُك.

فلصاحب الزيتون حقوق على صاحب الأرض كما يلي:

1. يسمح لصاحب الزيتون الدخول في الشتاء لقطف زيتونه، فيُعطى له حقّ الطريق؛

2. أن لا يطيل إقامته ولا يقطع عمله على أيام، وصاحب الأرض ينتظره، وبخاصة إذا كان أقاندوا في موضع الحشمة أو في المكان المسيّج؛

3. يجوز لصاحب الزيتون نزع متعلّقات الشجرة وتشذيب أشجاره، ويرمي بالمقطوع خارج أرض صاحبه، كما يسمح له بحرث ما تحت أشجاره دون تجاوز ظلّ الشجر؛

4. يمكن أن يجري عليها صاحبها نقشاً داخليا للتهوية في انتظار سقي ماء السماء؛

5. يجري لها مجرى مائياً من مطر طبيعي، شرط ألاّ يلحق مضرّة، وعلى أن يُعْلَم صاحبُ الأرض؛

6. لا يحقّ لصاحب الأشجار جلب ماء السقي أو حفر محبس ماء في أرض ليست له، إلاّ إذا كانت الزيتونة على طرف الطريق؛ فيمكن لصاحبها أن يحفر لها مجرى مائياً في الشتاء؛

7. إذا كانت أشجار أقاندوا بها ساقية سابقة، وكانت تسقى، فتبقى الساقية والمجرى المائي كما هو دون تغيير في أصل الأرض.

وأما ما على صاحب الأرض هو ما يلي:

1. يحقّ له أن يبدلها بأشجار بعيدة خارج تلك الأرض/ الضيعة؛

2. يحقّ له أن يشتريها بثمن تحدّده الجماعة، حالة ما إذا أراد بناء سكن أو توسيعه، أو تسييج أرضه كما لا يحقّ للأخ البائع فرض قيمة بدعوى (التحصين) وهذا مرفوض قطعاً. فيتنازل الأخ/ صاحب الشجرات أقاندوا بقيمتها الحقيقية دون الأخذ والردّ؛

3. يحقّ لصاحب الأرض شراء الأشجار حالة ما إذا ثبت نزاع بين الطرفين قد يؤدّي إلى حوادث لاحقة بسببها، كون أحدهما يأتي أرض خصمه في موسم الشتاء؛

4. يحقّ لصاحب الأرض قطع الفروع التي يراها مسبّبة لصعوبات الرؤية/ البناء/ الوسخ/ التهوية... بعد إعلام صاحب الأشجار.

6. ثِيوِيزِي: عادة قديمة عند القبائل، وهي إجبارية على كلّ الناس، ومن الأمور التي يظهر فيها التعاون والروح الجماعية، تُقام للأعمال الكبرى التي لا يستطيع فرد أو أفراد قلائل إنجازها، فلا بدّ

إعطاء الأخ حصّته بالتساوي؛ مقطعين من شجرات أرض الأخ الذي أخذ أشجارا أكثر. فتكون الأرض للأخ، وبعض أشجار الزيتون للأخ... وهذا ما يسمى عند القبايل **(أَقَانْدُوا)**.

من جهد بشري كبير، وهذا من أجل بناء المنازل/ بناء المحابس المائية/ بناء القناطر/ تمهيد الطرق والأزقة/ نقل الحجر المستعمل لصفائح القبور/ تسقيف الدُور/ جلب العَتَلات/ شقّ الطريق/ حفر الآبار/ مساعدة الفقير في بناء الدار/ بناء المسكن المتهدم/ تحريف مجرى الوادي/ تغيير مجرى الساقية/ حفر الساقية... وبالنسبة لجلب العتلات مثلاً يضع صاحب الحاجة الحبال مساءً في مقرّ الجماعة، ويُسأل عن صاحبه، ففي الصباح تهبّ الناس إلى الغابة لقطع العَتَلات المطلوبة. هذا ولا تزال (التويزة) إلى الآن مظهراً من أنبل المظاهر وأشرفها في ميدان الاقتصاد العام، رغم ما لُوحظ عليها من تقهقر في السنوات الأخيرة؛ حيث إنّ أغلب ما يُنجز الآن من الأعمال يكون بواسطة الأجر ذات التكلفة الباهظة ولذا أصبحت ظاهرة التويزة تقريباً في (كانت عند الأجداد). وعلى العموم فإنّ هذا العمل الجماعي (تويزة) فإنّه نوع من التضامن بين الساكنة، وهذا يعني أنّ الجماعة يمكن أن تُعْلِيَ من شأن الفرد والفرد ليس له دور إلاّ داخل الجماعة، يعني في ما يعني (الجماعة تغني الفرد، والفرد لا يستغني عن الجماعة) ومن هنا نعلم لماذا أبدع المازيغيون في العمل الجماعي الذي هو نوع من تخفيف الحمولة على غير القادرين، وأنّهم يقولون: ارزقْ عبدي من عبدي.

7. أَسْقّفْ: التسقيف عمل جماعي يدخل في إطار التويزة، حيث يأتي صاحب الشأن بالقِفاف إلى مقرّ الجماعة، ويُسأل عن صاحبها، وفي الغد يهبّ الناس باكرين، فترى فرقة تبدأ في قطع العَتَلات وإخراجها من الأحراش، وفرقة أخرى تعمل على شدّ الحبال لحمل العتلات، وفرقة ثالثة تبدأ في نسج القصب، وفرقة رابعة تخلّط التراب بالماء، وفرقة خامسة تستعد لحمله/ رميه على السقف، وفرقة سادسة جاهزة لوضع القرميد، وهكذا. وما إن ينتهي التسقيف ينال المعاونون حقّهم من الأكل بشبع. فيقدّم لهم التين والسمن والكسكس والرائب والزيت وما يتبع هذا من الثريد، وهذا حسب طبيعة الأكل والثمار المتوفّرة في ذلك الموسم. وفي العادة فإنّ صاحب السقف يقوم بالتويزة، فيقدّم أجود وأفضل ما لديه من أكل، وبخاصة ما تعلّق باللحم المذبوح الجديد، أو القديد، وكذلك ما يملك في بيته من مخزون غذائي لمثل هذا اليوم. وكان المفقود آنذاك هو القمح، ولذا لا يقدّم إلاّ الشعير ومشتقاته، كما لا تقدّم القهوة لأنّها كانت عزيزة على كلّ الناس، فلا يشربها إلاّ الأغنياء، فحتى عند الأغنياء لا تشربها النسوة.

وتتواصل علمية التسقيف حتى النهاية، وفي وقت الغداء يتمّ تقديم الغداء، وفي المساء يقدّم لهم العشاء بصفة عفوية ودون تكليف، ويعدّ ذلك اليوم بالنسبة لصاحب السقف يوم فرح؛ حيث يسيل الدم؛ بأن يذبح عجلاً أو ماشية، ويطعم في المساء كلّ من يمرّ على بابه.

8. الجنائز: قلتُ للراويَيْن: لماذا يتعطّل كلّ الناس يوم الجنازة؟ ويُمنع البيعُ والشراءُ حتى يتمّ الدفنُ؟ أجابا: إنّ الجنازة تأتي بغتةً، وكانت الأمور آنذاك غير ميسّرة، فلهذا يتجنّد البطن وربّما القبيلة من أجل: جلب الماء/ الاحتطاب/ طحن الشعير/ توزيع المهام بحسب مقتضيات الجنازة/ الاستعداد لمقابلة المعزّين... أضف إلى ذلك أنّ القبائل كانوا أقليّة، فإذا تغيّب أحدهم يظهر غيابه، فمن يسدّ مكانه، ولذا كان حضور الجنازات إجبارياً، وغلق المحال واجباً، والتجنّد مع صاحب المصاب ضرورياً، فيوم لك ويوم عليك. ولكن هناك بعض الأمور التي تراعى من مثل الشخص الذي تغيّب بعذر قاهر فله ذلك، ومن كان مسافراً فمقبول غيابه، ومن علم وسافر أو اشتغل في ذلك اليوم، فعليه أن يدفع أجر اليوم غرامة للجماعة. وإذا لم يدفع سوف يُنبّه طامنه بأن يغرمه إجباراً. وفي العادة يقوم الجار القريب/ أو الإخوة مقام الجار في تحمّل المعزّين أو تقديم الأكل، أو تفريغ داره، وهذه سنّة قديمة بأنّ الإخوة أو الجيران يقومون بتحمّل جزء كبير من مصاب أخيهم أو جارهم، وهذا ما يسمى: يا شاري دالة.

9. حقوق الجار: أول الحقوق الاحترام وعدم الإضرار، والوقوف معه في المناسبات المحزنة والمفرحة، ومن ثمّ يكون التسامح الذي هو عماد التعايش في كلّ الأحوال. ومع ذلك فإنّ المازيغيين وضعوا بعض المحدّدات التي يفترض أن تُحترم بين الجيران خوف عاقبة الأمور، وهي عدم غرس الجار الزيتونة على حدود جاره، وعليه أن يغرسها بمسافة لا تقلّ عن 4 متر، وإذا بنى الجار بيتاً عليه أن يترك حقّ الساقية، ولا يفتح نافذة إلاّ إذا بَعُدَ عن حدود جاره بمسافة لا تقلّ عن 4 متر، وفي الطابق الأول لا يحقّ له فتح نافذة مهما كانت، اللهم إلاّ كوّة صغير في الأعلى للتنفّس أو كوّة المطبخ حيث لا يُرى منها شيء.

وإذا حدث أنّ الجار يريد أن يبيع أرضه، فالشفعة تعود للإخوة بالدم، شرط أن لا تتجاوز مدة الشفعة الوقت المسموع، أي الوقت المشهّر بها في القرية، وإذا لم يشفع أهل الدم فللجار حقّ الشَفْعَة كما أنّ الجار ذي الجنب تكون له أولوية الشراء بعد الإخوة في الدم، على ألا يحصل البيع بالتحصين؛ حيث الجماعة هي التي تسعّر، وعلى الجار أن يمتثل دون مرافعة أو مزايدة.

10. أَلْحَمْكَا: ما يلحق الماشية بكلّ أنواعها (الضأن/ الماعز/ البقر) من فَجاءة الموت، ويلحق بها قبل الموت، أو الخنق؛ بحيث يحلّلها بإسالة دمها. والحمكا نوع من المعين أو الحَتْم والإجبار على العائلة/ الأقرباء/ الجيران/ البطن/ القبيلة. وتتحمّل هذه الأفخاذ الخسارة التي حصلت لشخص ما في القبيلة نتيجة موت فجائي لماشية لها قيمة. ويشترط أن تذبح ذبحاً طبيعياً بإسالة دمها دون غشّ، ثمّ يُعلِن صاحبُها عن الحمكا. وبعد الذبح يحصل توزيع اللحم على حصص (ثيخامين/

إزكًارن) ويأخذ كلّ بيت حصّته من هذا اللحم بالرضا أو بالإجبار؛ فيوم لك ويوم عليك. وللحمكًا شروط هي:

1. أن يكون صاحب الماشية قد ذَبَحَ ماشيته ذبحاً طبيعياً؛
2. أن يكون ثقة ولا يكذب وله مصداقية؛
3. أن يقبل بثمن الحمكًا التي تحدّدها الجماعة بنصف قيمتها أو بثلثها فقط؛
4. أن يجمع أمواله بعد مدّة حتى استيفاء الناس للمعلوم.

وبالتنصيص على ذلك فإنّ صاحب الحمكًا عليه أن يكون أميناً حيث لا يجعل الماشية غير المذبوحة حمكًاً، أو التي اختنقت، أو التي لم يلحق بها ذبحاً. فتروي رواية أنّ شخصاً من قبيلة (أَعَلاوا) في عرش (أَثْوَاعْيان) بعين الحمام، له جماعة من البقر، فذات يوم ماتت له بقرة في شقّ الجبل، فذبحها بعد موتها، ورآه شخص عندما كان يجرّها من الشقّ وهي ميّتة، وتنادى صاحب الماشية على القوم بالحمكًا. ولما أعملت القبيلة ملازم تقسيم اللحم، أنشد ذلك الشخص الذي رأى فعل صاحب الماشية فقال:

أَيَذَقَّلْ يَوْثان ذا أَكًذورارْ ... سَنيكً أثعبــاسْ
يَرْزاد أسيسنو يَرْنَاد أكوروشْ ... أَزْكًار أكـي ذا مُورْذوسْ
مَدان نَفْقَنْد ذا أكـضـلاعْ ... نك نفقغد ذو أكـپرنوسْ

وعند ذلك فَهِمَت القبيلة/ الجماعة أنّ البقرة ماتت قبل أن يلحق بها صاحبها، وغير جائزة للأكل لأنّها غير مسفوكة الدم، وأُغْرِم صاحب الحمكًا باستقدام ثوريين للذبح تكفيراً عن هذه المحاولة غير الأخلاقية.

11. حقّ الطريق: طريق القرية ملك مشاع، يحترمه كلّ الناس، ويحافظون على دوامه واتّساعه وعدم الإضرار به. وكلّ من رأى منكراً في الشأن العام ينبّه الجماعة بالأمر، والجماعة هي التي تتحرّى بعد ذلك. سنّت وتسنّ الجماعة حقّ الطريق وحقّ المسالك العامة بما لا يقلّ عن مترين (2) عرضاً، فإذا غرست غرساً تحترم قواعد الغرس؛ حيث تبعد الشجرة المغروسة بما لا يقلّ عن أربعة 4 مترات عن أرض الجار، أو عن الطريق العام، كما أنّ الطريق لا تردّ عليه الجداول أو ساقية الشتاء. إنّ حقّ الطريق والمسالك الاتّساع؛ بحيث تمرّ البغلة بحمولة (أَلْمَضْنْلَقْ)[86] وكان الأجداد يقيسون هذا العرض على حمل المرحوم؛ حيث لا يجوز أن يُلوّى المرحوم/ الميّت عندما يحمل نعشه على ظهر الدابة بالعرض، ولا يجب أن يكون الطريق عائقاً أمام كلّ ما يخلّ بآداب القرية.

86. شبيكة بِعَرْض مِتْرَيْن (2م) تُصنع من الحبال، يُوضع فيها الحصادُ عند نقله إلى البيدر للدّرس.

وللطريق احترامه؛ حيث لا تُرمى فيه الأوساخ، ولا تُخرج إليه روث الحيوانات أو مجاريها، ولا يُحفر فيه، ولا تُوضع له المطبّات أو الممهّلات، بل يحرس كلّ الناس على تهيئته وتصليحه كلّما حدث فيه انجراف. وتدعو الجماعةُ الساكنةَ مرّة بعد موسم الأمطار لإصلاح الطريق العام الذي أفسدته الأمطار، فيهبّ الناس بما لديهم من وسائل وأموال لتصليح الطريق؛ باعتباره من الشأن العام.

وهناك طرق أخرى ومسالك عديدة؛ فكلّ واحد له تسميته حسب وظيفته، فنجد طريق (البايلك) وهو الطريق الذي أقامته الدولة قديماً، وهو الطريق العام الذي تسلكه الجرارات وما تسحبه الحيوانات من مقطورات، ويسمى (أڤريذ أُوكَرُوسْ) وهناك طريق الجهة؛ وهو طريق بين القرى يضعه العقال بتهيئته وإقامة جوانبه، وهو عبارة عن مسلك ضيّق لكنّه لا يقلّ عن مترين (2) ويتحوّل بالتقادم إلى طريق عام، وهناك طريق القوافل؛ حيث تمرّ منها القوافل الوافدة من الصحراء، وتسلكها مرّة أو مرّتين خلال السنة، وفي هذه الطريق أماكن للتوقّف والتزّود بالماء. وهنا طريق المحجّبات: هو طريق للنّساء دون الرجال، ويكون بين الديار والأزقة الضيّقة، ولا يرتاده الرجال بتاتاً. وعلى ذكر طريق المحجّبات فإنّ المرأة يُخصّص لها صباح كلّ يوم للذهاب إلى العين للغسل وجلب ماء الشرب، وهي لا تخالط الرجال إلاّ الأقرباء الذين تربطهم بها قرابة الدم، وإذا مَشَيَت المرأة بمفردها لا يكلّمها أحد، ولا يُنظر إلى وجهها، بل يوسّع لها الطريق احتراماً، ويفسح لها لتمرّ إكباراً، ويكون غضّ البصر إجباراً، والبُعد عن الطريق إجلالاً. وإنّ أكثر الأماكن التي تردها النّساء هي الينابيع فتأتيها من أجل ملء القلل والجرار ونقف قليلاً في هذه النقطة لنرى أنّ المرأة تحمل الماء على رأسها مراراً وتكراراً، وتقوم بغسل الثياب والأواني في أوقات محدودة، وأثناء تواجدها في العين ينبغي عليها ألاّ يُسمع صوتها، وألاّ تلبس الخلخال في طريقها، كما لا يجب أن يشتمّ منها الطيب، لأنّها تتّجه أو تتواجد في مكان شبه عمومي. وإنّ كلّ متعلقات الزينة تلبسه في الأعراس ومناسبات الفرح، وقد تتكحّل أمام النّساء فقط، وربّما تأخذ بلباب امرأة أو عجوز تريدها عروساً لابنها.

12. عدم توريث المرأة: إنّ المازيغيين سنّوا طريقة في أنّهم لا يورّثون المرأة في العقار، وهذا بعدما زُوّجت إحدى بناتهم إلى غريب؛ حيث استولى على أرضها وباعها، ثمّ طلّق المرأة، وعادت إلى بيت أبيها منكسرة. ولذا احتاط القبائل من هذه المسألة؛ فأفتوا عُرفاً بأنّه لا تورث المرأة العقار، فأصبح ذلك من القوّة الملزمة بالعُرف، وأضحى اتّخاذ الثابت بالعرف كالثابت بالشرط.

صحيح إنّ المرأة عند المازيغيين لا يُعطى لها حقّها من العقار، ولكنّها مُصانة وشريفة بامتياز، لما لها من احترام في البيت وفي المجتمع، وتبقى كذلك عن طريق حفظ حقّها عند إخوتها

الذكور، فإذا تكسّرت بها الدنيا وتغيّرت الأحوال للسوء فتجد بيتَ الأب ملاذاً، هذا البيت الذي يُستثنى دائماً من تقسيمه على الورثة، فهو البيت الذي تعود إليه النساء المنكسّرات (بنات الدم) وتعيش فيه القواعد من البنات. والمهمّ أنّ المرأة/ الأخت تجد حقّها من الأرض عند إخوتها الذكور مَصوناً، وإذا أتت بأولادها فتعيش في ميراثها هي وأولادها معزّزة مخدومة، وبمساعدة عينية من إخوتها الذين يتحمّلون النفقة عليها وعلى أولادها إلى أن يكبر أولادها ويشتدّون، وعند ذلك تصبح الأخت في حلّ من إخوتها، وهي في بيت أبيها، هذا البيت الذي يسمى (بيت العائلة) الذي لا يقسم بين الورثة. وعلى العموم فإنّ حقّ الأخت محفوظٌ عند الإخوة؛ حيث تأخذه طيّباً وعيناً من الزيت والغلال والمال. كما أنّ من حقّها أن تُزار في كلّ المناسبات من قبل أخواتها الذكور وجوباً، وتُدعى في كلّ ما يحصل من جديد إلى بيت أبيها أو إخوتها، وبخاصة الأخ الأكبر، ولا يحصل أن يتغيّر العشاء للأفضل، أو يكون هناك ذبح أو تقديم لحم عند إخوتها إلاّ وتُدعى كلّ الأخوات، وبخاصة الأخت الكبرى، وهذا لما لها من قيمة تقديرية في بيت أبيها وعند إخوتها؛ فهي ممثّلة الأمّ في حياتها أو في موتها.

13. أَرْهِينة: يقال له بالعربية (الرَّهْن) وهو نوع من استغلال الموقف الصعب، يحصل عند حدوث أزمة مالية عند المُرْهِن/ المرتهِن؛ أو في حالة وفاة في عائلة، وهو بحاجة إلى النفقة على الجنازة، أو في حالة التغريم أو دفع الفدية، أو التخليص من السجن، وفي كلّ الحالات التي يقع فيها صاحب الرّهن مجبراً على رهن أرضه إلى ساعة الفرج، وأحياناً يضطّر في الحالات القصوى إلى عرض أرضه للبيع، ولكن هذه الحالة قليلة؛ لأنّ الأرض عند المازيغيين مثل العرض فلا يُتسامح فيه أبداً.

يشتدّ البحث عن المستدين، وقد يظهر أحدهم، ويكون من المستغلين للوضع، يدلي بخدماته، ولكن بشروط قاسية، وهي رهن عقار أو شجر... ذلك ما كان في القديم، وكانت جاهلية جهلاء؛ حيث يُستغلّ الظرف الصعب، فيُشترَط على صاحب الحاجة رهن أرضه أو أشجاره مدّة من الزمن، مقابل دَيْنٍ عيني، على أن تعود الأرض/ الأشجار إلى صاحبها حالة استيفاء الدَّيْن. علماً أنّ تلك الأموال التي استلفها المرتهِن تحسب من الخراج (العُشر) الذي تأتي به الأرض/ الأشجار، فيقتطع المُرتهَن لحسابه حتى يأخذ حقّه كاملاً، وإذا انتهت المدّة ولم يستوفِ المُرتهَن حقّه كاملاً هنا يتغيّر الموقف؛ حيث تُصبح الأرض/ الأشجار مِلْكاً له، إن لم يدفع له الباقي والدين في الوقت المتّفق عليه. ومع ما في الرّهن من إجحاف في حقّ الراهن، فقد وضع الأجداد شروطاً بينية محدّدة تؤطّر عملية الرّهن، وهي:

1. حضور الشهود؛
2. تحديد مدّة استغلال الرهن؛
3. كلّ نمو في العقار يعود للمالك الراهن؛
4. استرجاع الأرض/ الأشجار يكون بعد الإبراء من دفع الدَّيْن؛
5. يجوز للراهن أن يعقد اتّفاقاً مع المرتهَن على بيع الرّهن لفض كلّ تنازع؛
6. في حالة عدم دفع الدّيْن بعد انتهاء المدة، يشتري المرتهَن الأرضَ/ الأشجارَ بسعر تحدّده الجماعة وتُصبح مِلْكاً له.

توقّف الراويان عند هذا البيان والتفصيل، فقالا: لقد أعييتنا بأسئلة مِلحاح، ولا بدّ أن نتوقّف عن الكلام المُباحْ، لنسترجع ماضي الأجداد في لقاء الصباحْ، بعون الله والفلاح.

الراويان: الحاج محمد أمزيان ماني + يحيى بوخرباب.

سكتَ الراويان عن الكلام المُباح، وبقي لي الكلام المُتاح الذي ألخصّ به العمل في ارتياح، عن فعل الأجداد المِلاح، وبَصُرتُ بأنّ هذه القضايا والحدود تدخل في العادات والأعراف التي اعتاد عليها المازيغيون منذ الأسلاف، وحافظتْ عليها الأجيال بالنقل بلا خلاف، فأصبحت مظهراً اجتماعياً يدخل في باب القيَم والعادات والأخلاق ذات الأهداف، وتلعب دوراً مهمّاً في تمتين القبائل وتوحيد صفوفها المخلاف، وتقوم مقام القوانين في الصحاف. وبصُرتُ بأنّ انتزاع العادة من سلوك الناس من المحال وليس من السهل تغيير الطبيعة الثانية في البشر على كلّ حال، فما كان قديماً لا يتغيّر في كلّ الأحوال ويتطلّب الترويض حتى يتحقّق المنال.

ولقد عملتُ على جمع المعطيات الموضوعية والمعرفية المتواترة الصحيحة من أفواه الشيوخ والعارفين وأصحاب الدِراية والرِواية والمتمرّسين، وكلّ من اكتسب تجربة أو عايش الأحداث المتّصلة بالموضوع أو أخذها عن رُواتها، كما عملتُ على التركيز على هذا المتواتر من أجل العناية بتقاليدنا وعاداتنا، وإبقائها محفوظة مكتوبة يعود إليها الباحثون والدارسون. والآن يجب الإقرار بأنّ التقاليد والعادات هي ذاكرة الماضي، وتذكرٌ ووفاء لمن ولّى من الآباء والأجداد، وعبرة واستشراف للأبناء الأجواد، فهل يجب إحداث قطيعة مع تراثنا بحجّة التغيير والتجديد، أم نتقوقع في داخل ذواتنا بحجّة الحفاظ على هذا التراث.

وبناء على ما أراه أقول: هناك تراث زاخر في عادات الأولين، وكان على هذا الجيل المحافظة عليه والعمل على تطويره بما يتلاءم ومعطيات العصر، والتخلّي عن العادات الضارة، لأنّه صار

الارتباط بين العادة والتقليد مسألةً حتميةً، ولذا علينا أن نوازن بين استقرار العادات وهو غير ممكن وأنّ أيّ تمنيع للعادة أو أيّ قهر للذات كذلك غير ممكن، وعلينا أن نكون حيث يجب أن تكون النفعية التي تفرضها طبيعة المصالح المرسلة، وكلّ مصلحة تراعي فائدة المجتمع فهي مصلحة منشودة.

وإنّ المازيغيين سنّوا هذه الأعراف (إزَرْفَانْ) كمكوّنات قانونية للمحافظة على النظام القبلي، وكانت تعبّر عن إرادة الجماعة لتسوية الخلافات، وتقديم التسامح على التعارك، وتقنين الوقائع بالعُرف والتراضي عن طريق وسائل قانونية من أجل المحافظة على التوازن المجتمعي البسيط، وعن طريق المحافظة عليها يحصل السِّلْم الداخلي، وتعدّ قانوناً وضعياً ينظّم شؤون القبيلة التي لا يمكن وسمها بالفوضى أو اللانظام، وباتَ مطلوباً من المازيغيين أن يكونوا ذوي قِيَم إنسانية تنويرية مع محيطهم. وبهذه القيَم برهنوا كيف يتجاوزون الفراغ القانوني، ويُجسّدون مفهوم التعاون والتآزر والتضامن ويتفادون أيّ شيء يؤدّي إلى العُنف، ولقد كانوا وما يزالون وراء كلّ مبادرة تنسجم والقيَم الأخلاقية وطبيعتها الأصلية طاعة الجماعة فوق كلّ اعتبار.

ويجب أن نفهم بأنّ هذه الأعراف لم تأتِ عبثاً، بل استُمدّت من العادات اليومية المألوفة لدى الناس وتكوّنت بشكل تلقائي، ثمّ تحوّلت إلى نوع من الإلزام الأخلاقي والقانوني، وحَظِيَت بالاحترام وأصبحت لها قوّة تطبيقية. والأعراف هي نوع من القيَم الأخلاقية التي تخصّ العمل الجيّد والمستحسن وما استقرّ في النفوس من جهة العقول، وتلقفته الطباع السليمة بالقبول، ويمكن عدّها ميثاق شرف جماعي مجبول، تمثّل إرادة جماعية تحمي كلّ الناس في الفروع والأصول، وهذه القيَم والأعراف هي التي وَحّدت القبائل، وجمعت الشملَ لدى الأوائل، وسجّلت بطولاتٍ ومفاخرَ، وظلّت دستوراً عُرفياً مؤطّراً لحياتهم في جميع مناحي الحياة، هدفه الإنصاف والعدل والعيش الكريم، وكانت العقد القوى المتين، الذي يلبّي حاجة المجتمع المكين، كلّما دعت الضرورة إلى اليقين.

وختماً أقول: إنّ العُرف بما يحمله من قيَم وعدل وتسامح وأصالة واستقامة وتدبير، وكلّ ما يشير إلى عمل الخير هي من الموروث المتجذّر في سلطة الجماعة المازيغية، فحياتهم هي أعرافهم وهي التي جعلتهم يتجاوزون الفراغ وقانون الغاب؛ حيث الأعرافُ تنطلق من مرجعية محلية ومن ميراث متجذّر له مشروعيته التاريخية. فتاريخ المازيغيين في عوائدهم وأعرافهم في سلوكهم، وهي التي تمثّل جوهر فلسفة المنطلقات الثقافية التي بقيت عبر العصور دون نسيان أو إهمال، وظلّت منفتحة وحداثية كونها قيَماً مجتمعية تعمل من أجل مسح نهائي لمعايير يمليها عقل المجتمع بحسب ما يعيشه من معطيات قارّة، وما يميّزهم من إثبات الخصوصية، والبرهان على

الأصالة بما لها من قيمة وامتثال لقانون موجود بقيَمه لا بجسده، وامتثال الفرد لقانون الجماعة الذي هو سلطة القرار الجماعي. وكان لزاماً على كلّ مازيغي الانضباط والالتزام وتفعيل العُرف؛ باعتباره عمقَ المرجعية وعنصرَ الوجود ومنطقَ الفكر القبلي أو العروشي. ولو لم يكن ذلك كذلك لحصل التفتّت في هذا المجتمع الذي نقل لنا أعرافَه وسلوكَه عبر الأجيال، وما حدث فيها إلاّ بعض التكسير الذي يمكن ردمه بالجَبْر؛ لأنّها كانت تعبّر عن التكامل المجتمعي في صورة رأي الفرد داخل الجماعة، ورأي الجماعة لا يكون ضلالاً أبداً.

متابعات

كتب مترجمة

انتحار الغرب

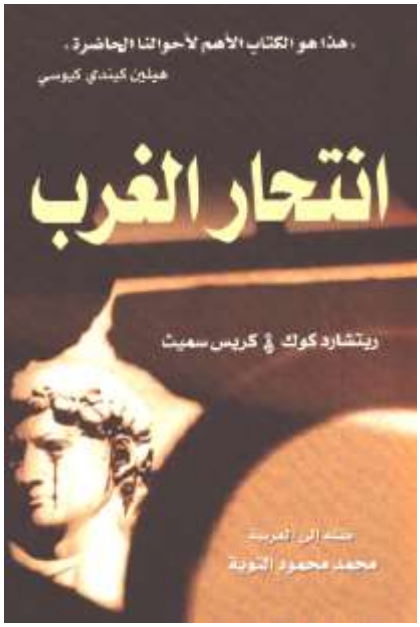

يطرح المؤلفان ريتشارد كوك وكريس سميث كتابهما المعنون (THE SUICIDE OF THE WEST أو انتحار الغرب)، أربعة أسئلة يتمحور حولها الكتاب هي:

هل هناك خصيصة تنفرد بها الحضارة الغربية؟

لماذا نجحت على هذا النحو الكبير؟

ولماذا تواجه الآن المهددات؟

وهل ستستمر في البقاء؟.

ويقدم المؤلفان للكتاب بمدخل ذي دلالة بهذه الكلمات: "**إن الاعتزاز والفخر الذي شعر به الأوروبيون والأمريكيون والكنديون والنيوزيلنديون عام1900م، نتيجة انتمائهم لحضارة متقدمة ومثيرة، قد انتهى الآن، ليس بسبب الأحداث والعوامل الخارجية، وإنما لأسباب داخلية تتمثل في انهيار الغرب وانعدام الثقة بالنفس**".

يؤكد المؤلفان على أن الحضارة الغربية مهددة تهديداً فادحاً، لأن معظم الأوروبيين لم يبقوا الآن مؤمنين بالأفكار التي جعلت الغرب ناجحاً إلى هذه الدرجة، فإن انهيار الثقة بالنفس لدى الإنسان الغربي لا يرتبط إلا قليلا بالعدو الخارجي، ويرتبط بصورة أساسية بالتحولات المزلزلة في الأفكار والمواقف الغربية.

ويفسر المؤلفان ما يعنياه بكلمة "انتحار" بأنها الإخفاق في حل التناقضات في المجتمع الغربي بطريقة تحفظ معها المثل العليا، وبتعبير أدق، تحول المجتمع الغربي إلى حضارة أخرى لا تقوم على عوامل النجاح الرئيسية الست (المسيحية، العلم، التفاؤل، الليبرالية، النمو، الفردية)، فهناك اتجاهات في المجتمع الغربي استمرت في النمو طوال القرن الماضي، ولكنها لم تكن واضحة وضوحاً جلياً إلا في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة، وهي اتجاهات إن استمرت، فسوف تجعل المجتمع مختلفاً تماماً عن أهدافه التاريخية، ومختلفاً عن الحقيقة الواقعة التي كانت تقترب أكثر فأكثر طوال عدة مئات من السنين، وهي باختصار تتمثل في إنكار المسؤولية الشخصية لتحسين الإنسان لنفسه وللمجتمع، وإنكار كل ما يسير مع المثل العليا الليبرالية.

- **مشكلة الهوية:**

إن أخطر القضايا التي تواجه كل غربي اليوم، وأصعبها ليست قضية البقاء الاقتصادي، ولكنها قضية الهوية، التي صارت باختصار متعددة، لا مركزية، عابرة وخاصية غريبة، وهويتنا نرتقها معاً من أنفسنا نحن بوصفنا أفراداً، ولكن على مدى العقود القليلة القادمة، يحتمل أن يختار الغربيون اختياراً جماعياً واحداً من أشكال الهوية المهيمنة الآتية:

- تراجع إلى العديد من الأشكال المحلية المحضة والاشكال الشخصية المحضة من الهوية، من دون أي إحساس سائد أوسع من المجتمع.
- إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقرون مع إحياء الهوية القومية مثل الأمريكيين والألمان والاستراليين وهكذا.
- أن تتشعب الهوية الغربية بشكل رئيس إلى ولائي "أمريكيين" و"أوروبيين".

– إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقروناً مع رأي يرى أننا كلنا دوليون ومواطنون في العالم.

– إحساس من الهوية المحلية، والشخصية والقومية، مع إدراك عام بأننا مواطنو الغرب بهوية ومصالح مشتركة مهمة.

إن فكرة الغرب التي تدمج فكرة أوروبا وفكرة أمريكا أعادت صنع خريطة العالم أثناء القرن الأخير، فبتكلفة ضخمة، محيت إلى حد كبيرة القومية المدمرة التي كانت تهيج الأوروبيين ضد الأوروبيين، وكذلك فقد تلاشت الإيديولوجيات المناوئة للغرب من النازية والشيوعية.

ومن الناحية السياسية وصل الغرب إلى مجموعة متنوعة من الأمم الأوروبية الحرة المستقلة، فهي ما زالت تحتفظ ببرلمانتها الخاصة وبهويتها القومية، ولكنها موحدة من الناحية الاقتصادية وإلى درجة معينة من الناحية السياسية، وفي تحالف واسع مع الولايات المتحدة، لكن هناك في بعض الأحيان توترات خطيرة في بعض العلاقات فيما يتعلق بالسلام والازدهار والحرية.

- **سقوط الليبرالية:**

منذ العام 1900م واجهت الليبرالية والمجتمع الغربي ثلاث مجموعات خطيرة من التحديات :

1- التهديد القادم من الايدولوجيا المنافسة التي كان لديها في بعض الأوقات دعم شعبي ضخم داخل الغرب.

2- التهديد القادم من الأعداء الخارجيين المرتبطين بايدولوجيات تحظى بدعم غربي ضعيف.

3- التهديدات القادمة من داخل المجتمع الليبرالي نفسه.

إن الأطروحة التي ناقشها عالم العلوم السياسية فرنسيس فوكوياما، التي ترى أن الليبرالية قد انتصرت مرة وإلى الأبد، هي أطروحة غير صحيحة لا تصمد للاختبار، فالليبرالية اليوم أقل تجذراً قوياً في المعتقدات الغربية، والمواقف الغربية مما كانت عليه في العام 1950 أو العام 1900.

إن أوضح خطر هو دائرة من الإرهاب والاستبداد المحلي يعزز أحدهما بشكل متبادل، فالحرب عدو القيم الليبرالية، فإذا كانت الحروب المستمرة والشديدة ضرورية لهزيمة الإرهاب والتهديدات الخارجية الموجهة للغرب، فإن القيم الليبرالية سوف تخفق، فلقد أدخلت إدارة حزب العمال البريطاني قانوناً لمكافحة الإرهاب يعطيها السلطة لسجن المواطنين إلى أجل غير محدد من دون توجيه تهمة أو محاكمة، وعلق اللورد هوفمان وزير العدل السابق بالقول: " إن التهديد الحقيقي لحياة الأمة، بمعنى الشعب الذي يعيش وفقاً لقوانينه التقليدية وقيمه السياسية، يأتي لا من الإرهاب،

بل من قوانين من أمثال هذه"، ولقد كان محقاً في أن يقول ذلك، إذ أن الإرهابيين يربحون، حين نتخلى نحن عن مبادئ العدل والديمقراطية نفسها التي نسعى إلى الدفاع عنها.

ويأتي خطر آخر في المظهر الجديد لما يسمى "الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي"، وهو فرض الديمقراطية بالقوة، الذي آذى أمريكا الليبرالية إذاءًا كبيرًا، وأضر بصورة الولايات المتحدة في الخارج "بوصفها التجسيد العظيم للحرية والأمل للإنسانية"، كانت دائماً قوة من قواها العظيمة، ومصدراً من مصادر القوة الناعمة للدبلوماسية الأمريكية، لكن هذا الاستعمار لطخ الصورة الكونية لأمريكا، وقد اغتصبت وسائل الإعلام المسرح السياسي وقلصته وجعلته ضئيلاً، وبذلك فقد الليبراليون الثقة بالنفس وفقدوا العاطفة.

والمشكلة الثالثة لليبرالية: هي تزايد انفصالها الكامل عن قاعدتها الأخلاقية، والالتزام الذي يزداد ضعفاً نحو الجماعة، وفقدان العاطفة الحقيقية من ناحية الليبراليين، وفقدانها للمثل العليا السامية والخواء العاطفي في قلبها.

إن بذور سقوط الليبرالية تكمن في نجاحها، فقد كان على الليبرالية لكي تصل إلى الإثمار الكامل أن تخلق مجتمعاً ثرياً ومعقداً واجتماعيا إلى درجة ملحوظة، لاسيما أن الليبرالية هي أكثر من الاستقلال الذاتي الوطني وأكثر من الديمقراطية، وأكثر من مجموعة أفكار سياسية مزدهرة ومؤسسات وأحزاب وأكثر من حكم القانون.

هناك دافع قوي داخلي لليبرالية نحو تدمير الذات، وإذا ما أخذ ذلك الدافع إلى الطرف غير المنطقي، ولكنه المُرضي عاطفياً، فإن الليبرالية تتكر تفوقها الخاص، وإن السعي نحو المساواة الدقيقة في النتيجة الحاصلة يستطيع أن يدمر المساواة في الفرص، ففي الوقت الذي تبقى فيه المعركة ضد عدم المساواة قضية رئيسية لمعظم الليبراليين، فإنها تستطيع أن تنزلق بسهولة إلى قمع الفردية، وإن الاعتقاد الخاطئ بما هو . صحيح سياسياً . يميل إلى إهمال النتائج غير المريحة للبحث العلمي، وخصوصاً في علم النفس وفي علم الحياة.

- **آلام النمو الغربي:**

إن الرأسمالية حالياً هي التي تقف أمام إعادة توحيد التقدم الاجتماعي والشخصي مع التقدم الاقتصادي، باعتبارها انحرافا وشذوذاً، ففي حين صنعت أوروبا ولاحقاً أمريكا التقدم طوال

800 سنة من خلال التوسع ومن خلال طاقات الطبقات الوسطى الحضرية الصاعدة، وأدى ذلك في النتيجة إلى النمو الاقتصادي وتقدم الحرية الشخصية والسياسية، فإن الرأسمالية الصناعية مزقت هذه الوحدة أجزاء، فلقد جاءت الرأسمالية بتقدمات اقتصادية ضخمة، لكنها همشت المنتِج الفرد، وجعلت الاقتصاد والمجتمع مركزيين، وإن الاقتصاد المشخصن يعود إلى اتجاه غربي طويل الأمد متمثل في تقديم الثروة والحرية معاً، وإن تقدم الاقتصاد المشخصن في الغرب لا عودة منه، لذا يمكن التأكيد على أن هذه التطورات الاقتصادية هي أرحم مؤشر معاكس لانتحار الغرب.

- **الغرب وما ليس غربا:**

يقف المؤلفان عند سؤال العلاقة بين الغرب وباقي الدول غير غربية، والمعتقدات التي تدفع السياسة الخارجية الغربية؟

ويجيب المؤلفان أن كل صانع سياسة غربي، يميل إلى العمل ضمنياً أو بصراحة واضحة، بواحد من ستة نماذج عقلية هي:

1- الشمولية الغربية : وهو الرأي الذي يرى أن الغرب يمثل الحداثة، وأن كل المناطق المهمة في العالم سوق تتحول إلى الليبرالية والرأسمالية حسب النموذج الغربي.

2- الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي: أي الاعتقاد بأن على الغرب أن يدفع بالديمقراطية وبالرأسمالية إلى الأمام في كل انحاء العالم، وبالقوة إذا دعت الضرورة.

3- المدخل الذي نسميه العالم . أمريكا: وهو الذي يرى أن العالم سيكون أسعد وآمن إذا فرضت أمريكا وحلفاءها سلاماً شاملاً، وسياسات اقتصادية مشتركة من دون القلق كثيراً حول زخارف الديمقراطية.

4- الغرب . القلعة: وفي هذا النموذج يتراجع الغرب إلى نفسه، ليحمي حضارته ويتخلى تخلياً فعالاً بشأن بقية العالم.

5- الرأي الدولي (Cosmopolitique): وهو الذي يرى أن الغرب والبقية سوف يلتقون لقاء طبيعياً نحو قيم ومؤسسات مشتركة.

6- إستراتيجية التعايش والجاذبية : وهذه لها أربع شعب، وهي : احترام تنوع الحضارات الأخرى، وأن تكون راغباً في التعايش معها، وإعطاء حياة جديدة للمثل العليا الغربية واجتذاب البقية إلى الغرب.

ويؤكد المؤلفان على أن العالم لن يكون بوتقة انصهار، ولا سيتبنى القيم الغربية تبنياً طبيعياً، ومحاولة فرض هذه النتيجة بالقوة، أو تقديمها عن طريق القسر بشكل جوهري، هو عمل غير ليبرالي، وغير عملي وغير مجد.

وبالتأكيد تستطيع أمريكا أن تفرض إمبراطوريتها بلا رحمة على الكثير من العالم، ومن الممكن على كل العالم، ولكن الحرية والأجزاء الجذابة من الحضارة الغربية سوف تفشل بالاستمرار وتنسحب، والنتيجة نفسها سوف تتبع أي محاولة جادة من الغرب للتراجع إلى معسكره.

إن البديل الوحيد العملي المعقول بالنسبة إلى الغرب هو أن يحترم الاختلافات الثقافية وأن يمارس الصبر وطول الأناة، وأن يؤمن بأفضل أفكاره وأن ينشر نفوذه بالقدوة، وأن يترك الأفكار ونتائجها تتكلم عن نفسها، وأن ينزع سلاح الأعداء بالتدريج ويجتذب الأنصار المشايعين.

- **الانتحار، هل هو محتوم؟**

إن الحضارة الغربية قد وصلت إلى مَفرَق على أحد شعبتيه، يحمل الطريق حالياً المزيد من المرور، ويوجد فيه الارتياب، والأنانية غير الملطفة، واللامبالاة، وإعادة المركزية والعدوان، وهي صفات دعت لها ومارستها معاً عناصر مختلفة في المجتمع.

ومع ذلك فهم يساندون مساندة كلية خصومهم الظاهرين، ويمكن لهذا الطريق أن يأخذ أشكالاً عديدة، من الفوضى السياسية إلى الفاشية الجديدة، والانهيار البيئي، إلى الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، ومثل هذه الأشكال كلها، سوف تشير إلى نهاية الحضارة الغربية، بوصفها المثل الأعلى الديمقراطي والفردي الذي تخيله الأوروبيون والأمريكيون، وغذوه واجتذبوا إليه، ليقتربوا اقتراباً أكثر طوال مئات السنين، والحضارة الغربية لن يدمرها أعداؤنا، ولكنها قد تُدَمَّر بأيدنا نحن أنفسنا.

وعلى الشعبة الأخرى من الطريق توجد استعادة الشجاعة والثقة بأنفسنا وبثقافتنا وبالوحدة العاطفية داخل أمريكا وداخل أوروبا، وبين أوروبا وأمريكا ومع العناصر الأوروبية الأخرى، يوجد مجتمع وحضارة يضمان بليوناً من الأفراد المسؤولين، مرتبطين معاً لا بالسلطة أو بالقسر أو

بالمعتقدات التقليدية التي لا تخضع للمناقشة، ولكن بالمواقف المكتشفة والموثقة ذاتياً من الكفاح الشخصي، والتفاؤل والعقل والرحمة والمساواة والفردية والهوية المشتركة، وهذا الطريق معبداً والارتحال فيه ليس صعباً، ولكنه يتطلب تغييراً في الاتجاه.

وسواء أُكمل أم لم يستكمل، فإن مصير الغرب هو أن يخلق حضارة رحيمة بالإنسانية على نحو كامل، وحرة وثرية، بفضل إطلاق الآمال، وأهم من ذلك، إطلاق الصفات الكامنة الممكنة والأخلاقية لجميع شعبها، وحسب المتصور تماماً وفي الوقت المناسب، لتكون نموذجاً جذاباً جاذبية كافية، لتستنهض معظم البشرية.

معلومات عن الكتاب

تأليف : ريتشارد كوك (الكاتب والمفكر الأمريكي الشهير) وكريس سميث (وزير شئون الثقافة البريطاني الأسبق)

- ترجمة : محمد محمود التوبة
- دار النشر : العبيكان للنشر والتوزيع
- عدد الصفحات: 330 صفحة
- العنوان الأصلي للكتاب:

Suicide of the West: An Essay on the Meaning and Destiny of Liberalism

- دار النشر: Unabridged LIBRARY edition (August 1, 1997)

" هل يستطيع الآسيويون أن يفكِّروا؟"

تأليف: كيشور محبوباني

ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني

صدر هذا الكتاب أول مرة في العام 1998، باللغة الانجليزية، ومؤلفه هو الدبلوماسي والمفكر السنغافوري ذي الأصول الهندية "كيشوري محبوباني" والمعروف في كثير من الأوساط بـ"توينبي آسيا" وربما نعته آخرون بـ"ماكس فيبر الأخلاقيات الكونفوشوسية الجديدة".

وأهمية الكتاب إذن، جاءت بسبب هذا الثقل المعنوي لمؤلفه أولا، وثانيا بسبب ثقل المنطقة المعنية بالتحليل (آسيا) خاصة وأنه يحمل هذا العنوان الاستفزازي؛ واستقطب الكتاب لأجل ذلك اهتمام الكثيرين من المتابعين.

وقام الدكتور "حمزة بن قبلان المزيني"، أستاذ اللسانيات بجامعة الملك سعود بالرياض، بترجمته إلى العربية، وهو عمل مشكور لأن فيه خدمة للمكتبة العربية التي تحتاج إلى أكثر من دراسة وأكثر من بحث يتعلق بشؤون آسيا سواء أتعلق الأمر بتركيبتها الجيوسكانية أو السياسية أو الاقتصادية، بالنظر لما حققته بعض بلدان هذه القارة الشاسعة في العقود الأخيرة من قفزات في مختلف الميادين، وما قدمته من نماذج زاهية في الإدارة والتنمية والتعليم والصناعة والخدمات الاجتماعية.

الكتاب دسم المادة، عميق المضمون بل أن قضاياه كثيرة ومتشعبة، ولعل عنوانه المستفز وما يحمله من دلالات ورسائل وأهداف، يحتاج إلى أكثر من وقفة، ويرى الدكتور المزيني في تقديم ترجمته أن الكتاب يهدف إلى إرسال رسالة إلى الآسيويين عموما، والآسيويين من شرق القارة وجنوبها تحديدا؛ وملخص الرسالة "أنه حان الوقت لآسيا أن تقوم بالدور الذي قام به الغرب طوال القرون الخمسة الماضية في قيادة التقدم العالمي علميا وصناعيا"، وأن هذا الدور ممكن إذا ما توفرت بعض الشروط الضرورية كتلك التي تحققت في اليابان وسنغافورة وماليزيا وكوريا الجنوبية وتايوان والصين والهند.

وبحسب الدكتور المزيني فإن عنوان الكتاب يوحي بشيء من التأنيب لسكان هذه القارة الشاسعة التي تراجعت في الخمسمائة سنة الماضية تراجعا خلف الغرب الذي كان يقبع خلف الآسيويين بأشواط بعيدة في مختلف المجالات، إلى أن تمكنت بعض الأقطار الآسيوية من الخروج من عباءة التخلف والظلام، ووضع أقدامها على عتبات التنوير وعلوم العصر وأسس التقدم.

وفي مكان آخر من مقدمته يضيف الدكتور المزيني فيقول: «إنه يمكن توجيه السؤال نفسه بصيغة أخرى، كما أقترح المؤلف، أي هل يستطيع العرب أن يفكروا؟ خاصة وأنه لم تستطع دولة واحدة من دولهم تحقيق شيء قريب مما حققه الغرب من حيث التقدم العلمي والصناعي. كما يمكن توجيه السؤال نفسه للمسلمين الذين لم تحقق إلا دولة واحدة من دولهم هي ماليزيا مثل ذلك الإنجاز، علما بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت قبل خمسة قرون متقدمة كثيرا على الغرب.

كما يُوجب هذا السؤال التفكير في ما لاحظه المؤلف من أنه لو كان المسلمون يفكرون لما استطاع عدد قليل من القوى الغربية أن يحتل هذه المساحة الشاسعة، دون أن تواجه إلا بالإذعان طوال أكثر من قرنين "ويُعتبر كتاب محبوباني مهما من ناحية أخرى هي أنه يدخل ضمن الحوار والجدل الدائرين اليوم عن إمكانية تحول ميزان القوى من الغرب إلى الشرق الآسيوي، في ظل نجاح قطبي آسيا الكبيرين (الهند والصين) في تحرير أنفسهما ومقدراتهما من المركزية والوصاية الغربية، ناهيك عما حققاه من ريادة اقتصادية وصناعية وعلمية وتنموية مشهودة، وإن كان هناك ما يستدعي جهودا مضاعفة لبلوغهما قمة الهرم العالمي.

لقد نشرت في السنوات القليلة الماضية دراسات وأبحاث كثيرة مصدرها الغرب حول احتمالات تنامي قوة ونفوذ العملاقين الآسيويين خلال السنوات الخمسين القادمة، بحيث تحتلان المكانة التي تحتلها الولايات المتحدة حاليا (خصوصا إذا ما قررا أن يضعا خلافاتهما البينية وتنافسهما الشرس جانبا وينصرفا إلى بناء علاقات تكاملية)، غير أن الحقيقة التي يجب أن تقال هي ان الزمن المحدد بنصف قرن ليس كافيا لكي تتخلص الهند والصين نهائيا من مشاكلاتهما وأزماتهما الداخلية. ذلك أن المطلوب أولا، وقبل الإعلان عن بلوغهما مراتب القوى العظمى الحالية المؤثرة في صناعة القرار الدولي، هو أن تجد الدولتان حلولا دائمة وجذرية للكثير من التحديات التي تواجههما، وعلى رأس هذه التحديات الفقر والأمية وسوء توزيع الثروة والفساد الإداري و الفساد السياسي والنزعات الانفصالية والسلم الأهلي.

الأمر الآخر الجدير بالتوقف عنده مليئا هو ما ذكره محبوباني حول الديمقراطية! فهو يقول، بلغة تكاد أن تكون حاسمة **أن تحقيق الديمقراطية ربما لا يحقق التقدم الذي تتطلع إليه بلدان**

شرق آسيا وجنوبها، ويضيف قائلا ما خلاصته **أن على أي مجتمع نام أن ينجح أولا في التنمية الاقتصادية قبل تحقيقه للحريات الاجتماعية والسياسية المماثلة لما هو قائم في المجتمعات الغربية المتقدمة.**

وهنا يبدو محبوباني كما لو أنه يطرح النموذج السنغافوري كمثال، فالأخيرة لم تحقق ما حققته من إنجازات مشهودة على مختلف الصعد بالديمقراطية، وإنما حققته في ظل نظام شمولي قاده مؤسسها وباني نهضتها "لي كوان يو" الذي استطاع برؤيته الصائبة وسياساته الحكيمة الهادئة أن ينقل بلاده خلال نصف قرن من مستنقع فقير وكئيب ومنفر وموبوء بالأمراض إلى بلد متطور وجاذب لرؤوس الأموال ورجال المال والأعمال.

معلومات عن الكتاب

العنوان الأصلي للكتاب: Can Asians Think?

الناشر: دار التايمز في سنغافورة

الترجمة: صدرت عن المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010 م، وتقع في 297 صفحة

طبعت هذه المجلة في دار الشمسية

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام

العنوان: حي بوسحاقي 113 (د) باب الزوار الجزائر

الهاتف / الفاكس: 021.24.59.51